٦ - بديع الزمان الهمذانى

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة

ثم شعر البديع عامة . سهل جيد المعانى منقح الالفاظ يتجلى فيه تهذيب الكتاب ، اذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لايقام له فى الأدب وزن ، ولكنه لايبلغ الدرجة العليا الا قليلا .

وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر ، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين : يقول فى المقامة الجاحظية : « ان الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف . وفى الآخر يقف . والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يذر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعا ؟

نثر الهمذانى

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها . تولاها كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى ، واختاروا من الالفاظ والاساليب الجميل المحلى ، دون إغراب ولا اخلال بالمعانى . وتناولت الكتابة كثيرا من فنون الشعر ، كالمدح والهجاء والغزل والوصف : الى ما كان لها قبلا من الموضوعات ، فاتسع المجال لنوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر ، لم يقيدهم فى النثر ماقيد الشعراء من الأوزان والقوافى والاصطلاحات . وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع ، ومنهم من يكتفى بالازدواج ، وقليل منهم يرسل الكلام ارسالا . وفى هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابى والمهلبى وقابوس ، والخوارزمى ، وبديع الزمان . ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب ، فلم تستغرق كتابته أمور الدولة وكثرت فى رسائله الموضوعات الخاصة والعامة . واستبانت نواح من عصره فى السياسة والأخلاق ، والآداب وغيرها

وله فى الكتاب أصحاب المناصب رسالة الى أبى نصر المرزبان يقول فيها : كنت أطال الله بقاء سيدى ومولاى فى قديم الزمان اتمنى للكتاب الخير ، وأسأل الله أن يدر عليهم اخلاف الرزق ، ويمد لهم أكناف العيش ، ويوطئهم أعراف المجد ، ويؤتيهم أصناف الفضل ، ويركبهم أكتاف العز ، وقد رأى أن أرغب الى الله تعالى فى ألا ينيلهم فوق الكفاية ، ولا يمدهم فى حبل الرعاية ، فشد مايطغون للنعمة ينالونها ، والدرجة يعلونها ، وسرع ماينظرون من عال ، بما ينظمون من حال ، ويجمعون من مال ، وتنسيهم ايام اللدونة ، أوقات الخشونة ، وأزمان العذوبة ، ساعات الصعوبة ، وللكتاب مزية فى هذا الباب ، فبينا هم فى العطلة اخوان ، كما انتظم السمط ، وفى العزلة أعوان ، كما انفرج المشط ، حتى لحظهم الجد لحظة حمقاء بمنشور عمالة ، أوصك جعالة ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرابا ، فساءت أمورهم ، حتى اسبلت ستورهم ، ولا غلت قدورهم ، الا خلت بدورهم الخ (١)

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات :

١ - الرسائل

لبديع الزمان ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة .

والرجل درّاك حساس ، اذا سلط فكره الى موضوع اضاءت له جوانبه كلها ، ثم وضحت أمامه طرائق البيان ، فهو مبين عن كل معنى بطرق مختلفة من التصوير والتمثيل ، يسايره القارئ فيها ، وهو معجب متعجب . انظر قوله فى بعض السلاطين (٢) : « قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماء . اذا تغيم لم يرج صحوه ، وبحر اذا تغير لم يشرب صفوه ، وملك اذا سخط لم ينتظر عفوه ، فليس بين رضاه والسخط عرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز ، فهو سيد يغضبه الجرم الخفى ، ولا يرضيه العذر الجلى ، وتكفيه الجناية وهى ارجاف ، ثم لاتشفيه العقوبة وهى اجحاف ، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح ، ويعمى عن العذر وهو ابين من عمود الصبح ، وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب بهذه العذر وهو برهان ، وذو يدين يبسط احداهما الى السفك والسفح ، ويقبض الاخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح احداهما الى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم ، فرحه بين القد والقطع ، وجده بين

(١) ص ٦٦ من الرسائل
(٢) ص ٦٩ من الرسائل

السيف والنطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وامره بين الكاف والنون ، ثم لا يعرف من العقاب ، غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدى من التأنيب ، الا لازالة النعم ، ولا يعلم من التأديب ، غير اراقة الدم ، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرة ، ولا النشرة ، ولا يحلم عن الهفوة ، كوزن الهبوة ، ولا يغضى عن السقطة ، كجرم النقطة ، ثم ان النعم بين لفظه وقلمه ، والارض تحت يده وقدمه ، لا يلقاه الولى الا بفمه ، ولا العدو الا بدمه ، والارواح بين حبسه واطلاقه ، كما الاجسام بين حله ووثاقه ، ونظرت فاذا انا بين جودين : إما أن اجود بنفسى ، وإما أجود برأسى ، وبين ركوبين : إما المفازة ، وإما الجنازة ، وبين طريقين : إما الغربة ، وإما التربة ، وبين فراقين : إما أن أفارق أرضى ، أو أفارق عرضى ، وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، أو أعناق الرجال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن ، وأنشدت :

إذا لم يكن الا الاسنة مركبا فلا رأى للمضطر الا ركوبها

ويقول فى رسالة كتبها الى القاضى ابى القاسم يذم احد القضاة (١) « فولى المظالم وهو لا يعلم اسرارها ، وحمل الامانة وهو لا يعرف مقدارها ، والامانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحملها الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البينة والدعوى ، فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب اليه من غمرات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيثة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق ، ولا حكومة ابغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل للفقير اذا ظلم ، فما يغنيه موقف الحكم ، الا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، الا بالنار من الرمضاء ، وأقسم لو أن اليتيم وقع فى اناب الاسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته اذا وقع بين غابات هذا القاضى وأقاربه ، وما ظن القاضى بقوم يحملون الامانة على متونهم ، ويأكلون النار فى بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الايامى ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ، وما قولك فى رجل يعادى الله فى الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهل السمت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السحت ، وما رأيك فى سوس لا يقع الا فى صوف الايتام ، وجراد لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردى لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود ؟ وما زلت ابغض حال القضاة طبعا وجبلة ، حتى أبغضتهم دينا ونحلة »

وكتب فى كتاب لم يعجبه انشاؤه وخطه : « الكتاب وصل ، حجم هائل ، ليس وراءه طائل ، وخط مجنون ، لا يدرى الف فيه من نون ، وسطور ، فيها شطور ، ديباج السرطان ، على الحيطان ، ولفظ اخلاط ، لا يدركه استنباط ، ولا يفسره بقراط ، هذيان المحموم ، وهوس الملوم ، وسوداء المهموم ، وقرأت شطر كتاب لم أدر والله عما يعبر ، عن أمور سقيمة ، أو عن أحوال مستقيمة ، لا جرم انى ظننت خيره ، ولم أبعد غيره ، وجوزت السلامة ، ولم آمن ضدها ، وذهبت مع الظن الجميل اتفاقا ، ثم رجعت القهقرى إشفاقا ، فسألت الله لك المزيد إن كانت سلامة والسلام »(٢)

وكتب الى أحد اصدقائه يطلب بقرة :

« وقد احتيج فى الدار الى بقرة يحلب درها ، فلتكن صفوفا تجمع بين قعبين فى حلبه ، كما تنظم بين دلوين فى شربه ، وليملأ العين وصفها ، كما يملأ اليد خلفها ، وليزن مشيها سعة الذرع ، كما يزين درها سعة الضرع ، ولتكن عوان السن ، بين البكر والمسن ، ولتكن طروح الفحل ، رموح الرحل ، وليصف لونها صفاء لبنها ، وليكن ثمنها كفاء سمنها ، ولتكن رخصة اللحم ، جمة الشحم ، كثيرة الطعم ، سريعة الهضم ، صافية كالجون ، فاقعة اللون ، واسعة البطن ، وطية الظهر ، ممتلئة الصهوة ، فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف ، فيؤديها الى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلق ، لتكون فى العين اهيب ، صيقة الخلق ، ليكون صوتها فى الاذن اطيب ، واحذر أن تكون نطوحا أو سلوحا ، واياك أن تبعثها ملوحا أو رشوحا ، ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ، ولا تكثر لحسها ، وداهية فى الرعى ، لا قريب سعى ، حمقاء على الحوض كالنعجة ، لا تأمن من البعجة ، ألوفة للراعى الذى يرتاها ، مجيبة لصوته اذا دعاها ، مهتدية الى المنزل

(١) ص ٧٣

(٢) الرسائل ص ١٦٦

بغير هاد ، ذاهبة الى المرعى بغير قياد ، ولا اظنك تجدها اللهم الا أن يمسخ القاضي بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز ، فاجهد جهدك ، وأبذل ما عندك . »

وهو أكتب مايكون حين يعظ أو يهجو أو يسخر . وللفكاهة فى بيانه مجال واسع (١) به يقول فى رسالة شفاعة : « مثلى أيد الله القاضى مثل رجل من أصحاب الجراب والمحراب ، تقدم الى القصاب ، يسأله فلذة كبد ، فسد باليسرى فاه ، وأوجع بالاخرى قفاه . فلما رجع الى مسكنه كتب اليه توقيعا ، يطلب حملا رضيعا ، كذلك أنا وردت فلا اكرام بألمام ، ولا صلة بسلام ، ولا تعهد بقلام ، فلما وجدته لايبالى ، بسبالى ، كاتبته اشفع لسواى ، وهو موصل رقعتى هذه ، وله خصم بينهما قصة لاأسأله فى البين ، الا إصلاح الجانبين ، والسلام »

وله من رسالة الى فقيه نيسابور فى رجل اغتاب البديع ، فرد عليه الفقيه : « فان كان لابد من انتقام واستيفاء ، فاعيذك بالله ان تجعل أن آذان الأنذال ، فى القذال ، وهى آذان لاتسمع الا من ألسنة النعال الأدم ، أو ترجمة أكف الخدم ، وعلامة فهمها جحوظ العينين ، وخدر اليدين . فان تاب ، والا كررت هذا العتاب . » (٢)

وله الى قيس بن زهير : (٣) « اعوز الصوف فبعثت اليك بفرو فطفقت تلوم ، وظلت تقعد فى العتاب وتقوم ، وارانى مابعدت فى القياس ، ولا خرجت عن متعارف الناس ، فالصوف نفس الفرو ، الا أنه نسيج ، والفرو نفس الصوف الا انه حديج ، فكل فرو صوف ، وليس كل صوف فروا ، فان أنصفت وجدت الفرو فطرة ، والصوف بدعة ، وإن نظرت رأيت الفرو صوفا وزيادة ، فكان نعمى وسعاده ، والفرو وبر فى الشتاء ونطع فى الصيف ، فان قرسك البرد فالبسه وأنت قيس ، وان غشيك المطر فاقلبه وأنت تيس » .

وبديع الزمان ليس متكلفا فى بيانه ، لايحس القارىء جهده فى اختيار الالفاظ أو سياق الأساليب ، ولكنه يلتزم السجع فى معظم كتابته سنة كتاب عصره .

وقد عاب الجاحظ فى المقامة الجاحظية بقلة الصنعة فى كلامه بعد أن عابه بأنه لايحسن الشعر قال : « فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؟ قلنا لا . قال : فهلموا الى كلامه فهو بعيد الاشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات . منقاد العنان الكلام يستعمله ، تفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ »

ب — المقامات

يقول الهمذانى فى رسالة يعيب فيها شعر الخوارزمى : « وما كنت لأكشف تلك الاسرار ، وأهتك تلك الاستار ، وأظهر منه العار والعوار ، (٤) لولا مابلغنا عنه من اعتراض علينا فيما أمليناه ، وتجهيز قدح علينا فيما روينا ، من مقامات الاسكندرى من قوله انا لا نحسن سواها ، وانا نقف عند منتهاها ، ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها على الاسماع والضمائر ، وأهداها الى الابصار والبصائر ، فان كانت تقبلها ولاتزجها ، أو تاخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى املائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ، ويتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية اربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين ، لا لفظا ولا معنى ، وهو لايقدر منها على عشر تحقيق يكشف عيوبه والسلام »

ومثل ذلك فى رسالة الى أبى المظفر بن أبى الحسن البغوى (٥) ويقول الثعالبى « فوافاها (يعنى نيسابور) فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ونشر بها بزه ، وأظهر طرزه ، وأملى أربعمائة مقامه نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها »

وكذلك يقول الحصرى فى زهر الآداب انها أربعمائة مقامة . والذى بايدينا من هذه المقامات اثنتان وخمسون . فهل ضاعت المقامات الاهذا المقدار ؟ أرجح أنه أملى فى الكدية أربعين وحرفت الكلمة الى اربعمائة ، وتتابع عليها النساخ . وذلك أنه يبعد أن يضيع هذا العدد من المقامات على كلف الناس بها ، ولأنه فى رواية الحصرى عارض بالمقامات الأحاديث الاربعين لابن دريد . ثم هو يقول إنه أملى هذه المقامات فى الكدية . ونحن اذا عددنا المقامات التى فيها كدية صريحة وجدناها خمسا وثلاثين . وجائز أن يكون البديع قد اعتبر خمسا أخرى من مقامات الكدية ، فان صح هذا فقد أملى أربعين فى نيسابور . ثم أملى الاخريات بعد كالمقامات الست التى فيها مدح خلف بن احمد .

يتبع

عبد الوهاب عزام

(١) ص ١٠١ (٢) ص ١٧٧ (٣) ص ٢٢٠

(٤) الرسائل ص ١٦٩ (٥) الرسائل ص ٢٢٧